التجربة الغاندية في جنوب أفريقيا وحدود التطبيق في الهند ظروف الاستقلال السياسي

مجلة دراسات افريقية

Journal Homepage: http://studies.africansc.iq/
ISSN: 2518- 9271 (Print) ISSN: 2518- 9360 (Online)

التجربة الغاندية في جنوب أفريقيا وحدود التطبيق في الهند ظروف الاستقلال السياسي

د. بان علي حمد سلمان
banali1989@gmail.com

تاريخ الاستلام:
٢٥/ ٧/ ٢٠٢٣
تاريخ القبول:
٣٠/ ٧/ ٢٠٢٣
تاريخ النشر:
١/ ٩/ ٢٠٢٣

الكلمات المفتاحية:
تجربة، المهاتما غاندي، جنوب افريقيا، استقلال الهند.

ملخص البحث:

شغلت السيرة الذاتية والنضالية للزعيم الهندي مهندسا كارامشاند غاندي (المهاتما) (٢ت١١٨٦٩-٣٠ك٢ ١٩٤٨) " .. ظاهرة ولاتزال عقول وقلوب الكثير من شعوب الارض طوال النصف الاول من القرن العشرين ،. فقد استطاع وبحق الزعيم الهندي الزاهد والضعيف من حيث البنية الجسدانية والقوي بعزمه وارادتة الوطنية والانسانية اصبح قوة تهابها الارادة الاستعمارية في الشرق .

المجلد الثاني العدد (١٢)
صفر ١٤٤٥هـ-
أيلول ٢٠٢٣م

The experience of Mahatma Gandhi in South Africa and its effects on his orientations political demands for the independence of India Historical-Political Study

Dr. Ban Ali Hamid teacher

banali1989@gmail.com

Received:
25/7/2023

Accepted:
30/7/2023

Published:
1/9/2023

Keywords:
Keywords: experience, Mahatma Gandhi, South Africa, Indian independence

Journal of African Studies
volume (2)
Issue (12)
Safar 1445 H

Absrract

The biography and struggle of the Indian leader Mohandas Karamchand Gandhi (Mahatma) (2 T 11869 - 30 K2 1948) "...a phenomenon that still remains in the minds and hearts of many peoples of the earth throughout the first half of the twentieth century, he was able and rightly the Indian leader who was ascetic and weak in terms of the physical structure and strong in his determination and his national and human will become a force feared by the colonial will in the East.

المقدمة:

تمكن هذا الانسان ان يجعل من الروح العظيمة الكامنة بذاته ان يصبح قوة تهابها وسلاحا قويا امام الارادة الاستعمارية ممثلة بالجيش وقوة الشرطة المدججة بالحديد والنار؛ وكيف استطاع ان يجمع بهذه الارادة المتناقضات الكثيرة التي فتت العضد (الساعد) الهندي ويشكل منها قوة الى جانبه بتقادم الزمن.

آراء واسئلة متنوعة تطرح نفسها على مسار حركة الاحداث ازاء العنف الشديد والشرس الذي عاد يكتسح العالم في اواخر القرن العشرين ... واذا كانت حياة وتجربة عاندي واسعة وخصبة ومليئة باحداثها، فان هذه الدراسة سوف يسلط الضوء على مسار حياة هذه الشخصية ونضالها منذ الارهاصات الاولى في التنظير لمكافحة في جنوب افريقيا حتى عودته الى بلاده وقيادة حركة المقاومة السلمية المطالبة بالاستقلال الهندي عن التاج البريطاني .

ومن خلال قراءاتنا عن تاريخ واحداث هذه المرحلة الاستعمارية بكل تطوراتها لفت أنتباهنا وجود بعض الهنود في جنوب افريقيا والذين تلقوا المعاملة غير الانسانية نفسها والتي كان يتلقاها الافارقة السود من جانب السلطات الاوروبية، واكثر من ذلك هو تردد اسم غاندي في هذه الاوساط المجتمعية، هو الذي صاغ فكرة أو منهج اللاعنف اي المقاومة السلمية للاحتلال في جنوب افريقيا بشكل خاص .

وعليه وجدنا ان هذا الموضوع جدير بالدراسة والاهتمام الاكاديمي، مع الصعوبة في الحصول على المادة التاريخية لهذه المرحلة ووثائقها الاجنبية او العربية، خاصة عن الهنود واقامة غاندي في جنوب افريقيا .. ومع كل ذلك تم جمع ما يتصل بتلك المرحلة في حياة الهنود وغاندي بشكل خاص من خلال المصادر والوثائق التي تم الحصول عليها اثناء وجودنا في القاهرة من خلال دار الكتب والوثائق المصرية والمؤسسات العلمية والاكاديمية ضمن جامعتي القاهرة وعين شمس وغيرها من المراكز البحثية، لاعداد هذه الدراسة من خلال مقدمة وستة محاور رئيسة، حيث جاء في المحور الاول:

الاوضاع العامة في جنوب افريقيا قبل وصول غاندي، فيما شمل المحور الثاني نشأة غاندي ومراحل تطور حياته الاجتماعية والسياسية، وقد استعرض المحور الثالث قانون الحقوق السياسية وتاسيس المؤتمر الهندي في جنوب افريقيا، اما المحور الرابع زيادة غاندي السلمية للهند، مع الخاتمة وقائمة المصادر .

المحور الاول: الاوضاع العامة في جنوب افريقيا قبل وصول غاندي

منذ بداية القرن السابع عشر استقر بعض الهنود في الطرف الجنوبي الغربي من قارة افريقيا، بعد ان تاسست شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢ م ومنحتها الحكومة الهولندية سلطات واسعة فيما يتعلق بموضوع الملاحة والتجارة في المحيط الهندي، وبمرور الزمن اسست الشركة محطة خاصة لها في منطقة (خليج تيبل) – حيث تقع مدينة (الكاب) حاليا – لتموين وصيانة سفنها في المحيط الهندي، الا ان الهولنديون واجهوا الكثير من المضايقات مع ذلك ثمة تعاون: عبر مقايضة السلع والبضائع الاوروبية بالماشية والغنم التي كان يمتلكها الهونتوت المحليون، الذين قد استوطنوا الى الجنوب الغربي من القارة، تحت ضغط وتهديد قبائل (البانتو) القادمين من شمال القارة الافريقية، ومع تزايد عدد ونفوذ الهولنديين واستقرارهم في المناطق الصالحة للزراعة في الشمال والشرق من القارة، وبتقادم الوقت ازداد نفوذهم عرفوا هؤلاء باسم البوير (Boer) اي المزارعين .[١]

وعندما قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م على مهاجمة هولندا، اتفق ملكها (وليم أورنج) الذي سبق وان هرب الى انكلترا، على ضرورة سيطرة القوات البريطانية على منطقة الكاب، كي لا تسقط في ايدي الفرنسيين، ويبدوان انكلترا بعد ان احتلت هذه المنطقة، بدات تفكر في وضعها ضمن ممتلكاتها الاساسية نظرا لاهميتها الاستراتيجية، ولذا اعادتها الى الهولنديين بناءً على ما تم الاتفاق عليه في معاهدة بين الطرفين اسماه

(١) لفظة بوير يعني العاملين بالزراعة، وفي القرن التاسع عشر اصبح هذا الفظ يطلق على الساكنين في جمهوريتي الاورنج الحرة والترانسفال من اصول هولندية، ثم اطلق لفظ أفريكانرز على جميع الهولنديين المستقرين في جنوب افريقيا.

(أميان)عام ١٨٠٢ م[١]. شكل هذا الموقف صدمة على الارادة البريطانية، لذلك عندما بدا الصراع بين البلدين نتج عنها الحرب مرة اخرى بين البلدين – بريطانيا وفرنسا – حيث انتصرت البحرية البريطانية على فرنسا وسيطرة بريطانيا على منطقة الكاب من اجل قطع الطريق على هولندا حول امكانية التدخل في مسار التجارة البحرية البريطانية، وفي نهاية المطاف اقرت الدول المتصارعة في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م عن القيام بريطانيا بضم مستعمرة الكاب تحت ادارتها. من هنا بدات الادارة البريطانية بتشجيع الهجرة الى هذه المستعمرة بعد ان استقر فيها الكثيرين من الرعايا البريطانيين الذين استعانوا بشكل رئيسي ببعض الهنود للعمل في مشاريعهم المختلفة، من هذا التاريخ بدأ ارتباط تاريخ مستعمرة الكاب بالسياسة الاستعمارية البريطانية بشكل مباشر.[٢] من جانب آخر، أخذ الهولنديون المقيمون في مستعمرة الكاب يشعرون بنوع من التعسف من السياسة البريطانية، لذلك اخذوا بالهجرة شيا فشيا باتجاه الشمال والشرق على شكل مجاميع متعاقبة منذ عام ١٨٣٠م[٣] بهذه الصورة كونوا بتعاقب الزمن مستعمرتي (ناتال وأورنج الحرة) في الوقت الذي، شعرت فيه بريطانيا بالقلق والتحسب من عملية تجمع البوير في ناتال وزيادة نشاطهم التجاري الحيوي في دربان، الى جانب اكتشاف الفحم في تلك المنطقة زاد من شدة الصراع على المصالح بين الاطراف المتصارعة، واخيرا انتهت باعلان بريطانيا على ضم ناتال الى مستعمرة الكاب عام ١٨٤٣م، لذا اضطر البوير او الافريكانرز للهجرة الى مناطق اخرى، حيث استقروا في الاراضي الواقعة بين نهر الاورنج والفال، ومن ثم قامت جمهورية الترانسفال واتخذت من مدينة (بريتوريا عاصمة لها، وكذلك دولة الاورنج الحرة التي اتخذت من مدينة وينبرج عاصمة لها هي الاخرى .[٤]

---

(١) كانت هذه المعاهدة بين انكلترا وفرنسا.

(٢) شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، ادار النشر بلا، القاهرة، ١٩٧١، ص٢٥٥.

(٣) يطلق عليه في التاريخ السياسي اسم الزحف العظيم – الهجرة الكبرى.

(٤) قرر الترنسفال واورنج الحرة ان يتعايشا تحت سيطرة البوير ما يقارب من خمسين عاما قبل ان

من جانب آخر، من الصعوبة ان نحدد وبدقة تاريخيا وصول الرعيل الاول من الهنود الى جنوب افريقيا، ولكن ما يهمنا في هذا الشان انه بعد استيلاء انكلترا على ناتال وضمها الى مستعمرة الراس، اخذ المغامرون البريطانيون يتوافدون اليها لاقامة مشروعاتهم الزراعية التي كانت تقوم على اكتاف الافارقة والملونين وخاصة الهنود، ولذا لم تمض بضع سنوات حتى تزايد عدد الهنود في ناتال ولم يقتصر عملهم على الزراعة فقط، وانما اصبحوا يزاولون الخدمة في منازل البريطانيين، كذلك في الحدائق والحوانيت وغيرها من المصالح الاخرى، حتى اصبحوا يشكلون نسبة كبيرة من سكان المستعمرة، وقد ترتب على تزايد المشروعات وادخال زراعات جديد اخرى الى جنوب افريقيا الى ابرم حكومة ناتال عام ١٨٦٠ اتفاقا مع حكومة الهند لتنظيم مسالة تشغيل العمالة، فتضمن الاتفاق ان تقوم الحكومة الهندية بارسال عمال من الهند للعمل في مزارع القصب والقطن في ناتال بموجب عقد لمدة خمس سنوات يحق للعامل بعدها ان يتعاقد بنفسه للعمل لمدة خمس سنوات اخرى، وكان هؤلاء يعرفون باسم(جيرميتياس)[1]. وبعد مرور عشر سنوات يحق لهذا العامل ان يختار بين العودة ثانية الى الهند او الاستقرار في ناتال، واذا فضل البقاء في المستعمرة فانه يمنح قطعة ارض لزراعتها من ارض التاج، مما ادى الى تزايد عددهم بصورة مستمرة خاصة بعد اكتشاف الماس والذهب في جنوب افريقيا. وكانت السمة الغالبة على المجتمعات جنوب افريقيا حتى هذه المرحلة هي الزراعة والرعى، ولكن في عام ١٨٦٧اكتشف الماس في (كمبرلي) في الصحراء الواسعة غرب دولة الاورنج، والذهب في منطقة (الراند) حول جوهانسبرج بجمهورية الترانسفال. والحقيقة التاريخية انه بقدر ما كان اكتشافهما نفعا لهم، بقدر ما ترتب على ذلك الاكتشاف من مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية وفي مقدمتها مسالة التمييز العنصري التي نفذها البيض على السود والملونين، والتي لازالت اثارها باقية

تخضعا للنفوذ للنفوذ البريطاني. , Marais, J.S.: The fall of kruger s Republic oxford ,1961.p.78

(١) شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، مصدر سبق ذكره، ص٢٥٦ .

الى اليوم[١] فقد ترتب على اكتشاف تلك المعادن ان تدفقت افواج من البريطانيين من ناتال ومن مستعمرة الراس ومن انكلترا ذاتها وتبعتهم موجات متلاحقة من المغامرين الاوروبيين، وسرعان ما تلونت الشركات لاستخراج تلك المعادن واقيمت المشروعات الاخرى المساعدة لعمليات الاستغلال مثل انشاء شبكات من خطوط السكة الحديد لربط مواقع العمل بالمدن، ولم تكن لدى البوير والافارقة خبرة بالتعدين، لانهم كانوا حتى ذلك الوقت يهتمون بالزراعة والرعى، ولذا اقتضت الحاجة الى استقدام العديد من الهنود للعمل بصهر المعادن بجانب القيام بالمشروعات الاخرى كالزراعة ورصف الطريق وتشييد المباني وغيرها، وكانت النتيجة زيادة عدد العاملين من الهنود وباجور زهيدة مما ساهم بثراء الكثير من اصحاب العمل .وبعد ان اصبحت الملكة فيكتوريا تلقب بامبراطورة الهند(١٨٧٧)اخذ رجال المال والاقتصاد يدفعون الحكومة البريطانية لاستغلال الهنود والضغط على حكومة الهند لتسهيل اجراءات هجرة الهنود الى جنوب افريقيا، وقد تمكن شخص يدعى(سيسيل رودس) [٢] تمكن ان يؤسس شركة جنوب افريقيا البريطانية، في عام ١٨٨٩،وكان من اهدافها تشجيع الهجرة والاستثمار وتنمية التجارة بين تلك الهجرات وانكلترا واستغلال المناجم فيها[٣] وقد ترتب على ظهور تلك الشركة بالذات ان ازداد تدفق البريطانيين وكان اكثرهم من المغامرين او الرأسماليين الى جنوب افريقيا للاستغلال والاستيطان، وفي ذات الوقت كانت القنوات مفتوحة

---

(١) لفظ " جيرميتياس " ماخوذ من لفظ جيرميت المحرفة عن كلمة Agreement اي اتفاق بالانكليزية، وكان البريطانيين يطلقون على افراد هذه الجماعة اسم " كوليز " اي العمال وسرعان ما عمم اللفظه واطلق على كل الهنود لكونهم ينتسبون الى الطبقة العمالية، رغم أن لفظة كولي او سامي وهي لا تعدو ان تكون لفظة سوامي السنسكريتيه وتعني السيد. للمزيد ينظر: غاندي، قصة تجارب مع الحقيقة .. سيرة المهاتما غاندي بقلمه، نقلها الى العربية منير البعلبكي، بيروت، ١٩٨١، ص١٣٢.

(٢) كان اكبر العتاة الاستعماريين البريطانيين في افريقيا مثل نظيره الاستعماري اللورد كيرزون في الهند، ينظر .freda, Troup: south Africa) penaiun Books 1975 (p. 154

(٣) شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٦ .

بين حكومة الهند البريطانية وبين الادارة البريطانية في جنوب افريقيا، فاستمرت الاولى تلبي احتياجات الشركة من الايدي العامله الهندية من ذوى الاجور الرخيصة للعمل في مناجم وافران صهر المعادن. ولم يقتصر الامر على قدوم الهنود من جنوب وشمال الهند الى جنوب افريقيا، وانما وفدت الى دربان جماعات هندية اخرى من موريشيوس وموزمبيق وزنجبار كانت تقيم في تلك البلاد منذ فترات سابقة[١]. وقد استغلت الشركة هؤلاء الهنود في اعمالها المختلفة وانخرط البعض منهم في القوة العسكرية التي شكلتها الشركة لحماية الذين يقومون باعمال الحفر والتنقيب وصهر المعادن في الافران بجانب الحفاظ على النظام والامن وطبقت عليهم اجراءات التفرقة العنصرية وان كانت افضل من تلك التي تمارس مع السود الافارقة.ومع تزايد هجرة الهنود الشماليين وغيرهم الى جنوب افريقيا،اصبح لهم وجود،وان كانوا ينقسمون الى جماعات مختلفة هي:

١. جماعة التجار المسلمين كان انحدارهم من بلاد العرب .

٢. المستخدمون الهندوس.

٣. المستخدمون الباريسيون والذين جائوا من فرنسا.[٢]

هذا وكانت بين تلك الجماعات الثلاث بعض الصلات الاجتماعية، ولم تؤثر،الاختلافات الدينية الاسلام والهندوسية والمسيحية على نظرتهم لقوميتهم الواحدة ووطنهم الام الهند الكبرى. ولذا كان هؤلاء الهنود ككل يتطلعون في تكوين جالية لهم تتمتع بحقوق واستحقاقات انسانية اكثر في جنوب افريقيا خاصة وان اعدادهم كانت في تزايد مستمر، كما كانوا يرون انهم يشكلون جوهروعصب القوة العاملة الاقتصادية، ومن ثم يجب ان يتمتعوا بحقوق مجتمعية في مختلف نشاطات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية دون تميز او تفرقة[٣] من هذا المنطلق، كان الهنود في

---

(1) freda, Troup , op .cit ., p. 204 .

(٢) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٣ .

(٣) عبدالملك عودة، قضايا الاقلية الاسلامية في جنوب افريقيا، مجلة الهداية، البحرين، العدد ١٤٣، ص٨.

جنوب افريقيا الى من ياخذ بيدهم وهم بامس الحاجة الى هكذا جهد ويرسم لهم الطريق والمسار السليم ويدافع عن حقوقهم، وكان كل هذه الطموحات والمطالب تبناه وجسده شخص المهاتما غاندي الذي افاد واستفاد من وجوده في جنوب افريقيا،ولكن قبل ان نرى ابعاد الافادة والاستفادة..نتساءل من هو غاندي ولماذا سافر الى تلك البلاد،لنعرف ما اذا كان لنشأته الخاصة من التاثير وتكيفه في القارة السمراء ضمن جنوب افريقيا والمختلف عما هو عليه في القارة الهندية .

ولد موهنداس كارامشاند غاندي (الماهاتما) (٢ت١١٨٦٩- ٣٠ك٢ ١٩٤٨) بمدينة(بورباندار) عاصمة مديرية كوجرات في غرب الهند، وكان والده حاكم المدينة، حيث كان يتمتع بكفاءة ادارية، وقد تمكن من التكيف مع مجتمع النبلاء الذين يتعاملون بقسوة وتعصب مع رعاياهم، الى جانب قوة وسيطرة الادارة البريطانية المهيمنة على السلطة بكل مؤسساتها من ناحية الاخرى، وكانت والدته(بوتلي باى) من اسرة متدينة حيث كانت تقضي وقتها مابين اعمال المنزل والتعبد في المعبد، وفي وسط هذه البيئة نشأ غاندي وتلقى تعاليم اخلاقية هندوسية صارمة لاحد الاديان الهندية التي تنص معتقداتها على اللاعنف والايمان بانه يجب عدم تعرض اي كائن للاذى وعدم تناول اللحوم والصوم من اجل التطهر الذاتي من ناحية ولاشباع الفقراء من ناحية اخرى، والتسامح المتبادل بين الموالين لكل العقائد والطوائف بعيدا عن التعصب او العنف[١] وفي عام١٨٨٧ وبعد اكمال المرحلة الاولية للدراسة، شق غاندي طريقة بصعوبة في اختيار الانتساب لجامعة مومباي كلية (سامالداسي) في (بانجور)، وفي هذه الفترة كانت عائلته تتناقش حول مستقبلة ،ولوحظ انة كان يفضل ان يصبح طبيبا اذا كان له الاختيار، ولكن طبقا لتقاليد العائلة وتراثها في الوظائف، كان عليه ان يؤمل نفسه ليصبح محاميا، لينمكن من الحصول على وظيفة رسمية، وهذا الامر كان يتطلب منه ان يشد الرحال الى بريطانيا، وكان هناك اعتقاد شائع في المجتمع الهندوسي منذ قرون طويلة

(١) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤ .

ان المرء يحرم من دينه الهندوسي بالسفر الى ما وراء البحر[١] ولكن سرعان ما رحب غاندي بفكرة السفر حيث صورت له تاملاته وهو في ريعان الشباب ان بريطانيا هي ارض الفلاسفة والثراء ومركز الحضارة الغربية، ورغم بعض الصعوبات المالية وتخوف والدته من تعرضه لاغراءات غير معروفة واخطار الحياة والعيش في بلاد الغربة، فان غاندي قد اتخذ قراره بعد كل هذه التساؤلات والاراء وصمم على الذهاب الى بريطانيا، وقد نجح في اتخاذ قراره وتبديد شكوك والدته عندما اعطاها وعدا وتعهد بان يبتعد عن كل ملذات الحياة الغير الضرورية والمنافية للقيم الدينية والطقوس الهندوسية، ولا يتقرب من النساء او ياكل اللحم، عنها ابحر غاندي من وطنه في الرابع من ايلول عام ١٨٨٨، متوجها الى بريطانيا، وعقب وصوله الى لندن بعشرة ايام التحق باحدى الكليات لدراسة القانون. وهناك اخذ الامور بجدية وحاول منذ البداية ان يحسن من لغته الانكليزية واللاتينية، ولكن بجانب دراسته للقانون الروماني[٢] والقانون الانكليزي، ظل مشغولا بقضايا انسانية واخلاقية اخرى، ربما كانت اكثر من طموحاته العلمية والاكاديمية، فقد تعرف على كثير من الشخصيات البارزة التي كانت تعمل في المجال الاجتماعي والانساني مثل(ادوارد كارينتر) وبعض الفابين مثل (جورج برنارد شو)[٣]والثيوصوفيين مثل(آني بيسانت)[٤] وغيرهم، وكانوا جميعهم يشجبون شرور الراسمالية والمجتمع الصناعي ويقدرون الحياة البسيطة ويركزون على تفوق الاخلاق

(١) محمد حسين خان شفا، الزعيم غاندي والزعماء العرب، ثقافة الهند، المجلد ٤١، العدد ٢، نيودلهي ١٩٩٠، ص١٦٨ .

(٢) افاده كثيرا في جنوب افريقيا فيما بعد حيث كان القانون العام الهولندي مستنبطا من قانون جوستنيان.

(٣) انشات الجمعية الفابية الانجليزية في عام ١٨٨٤ وسعى اعضاؤها الى نشر المبادى الاشتراكية بالوسائل السلمية .

(٤) الثيو صوفيين وهي معرفة (الله) عن طريق التامل الفلسفي وهي ايضا معتقدات لحركة حديثه نشأت عام ١٨٧٥وجرى تاسيسها في المقام الاول على مجموعة من المبادىء البوذية والبراهمية مذهب فلسفي ديني ينتمي الى البوذية .

على الحياة المادية، ويفضلون التعاون على الصراع وكانت هذه المبادئ هي الاساس في تشكيل شخصية غاندي وفي منهجه السياسي قبل ذهابه الى جنوب افريقيا[١] على اي حال بعد ان فاز غاندي بشهادة الحقوق في حزيران من عام ١٨٩١ وسجل اسمه في المحكمة العليا، ابحر عائد الى الهند، وهناك كانت تنتظره مفاجآت شخصية مؤلمة، فقد توفيت والدته اثناء غيابه، كما اكتشف ان مهنه المحاماة غير مجدية للمبتدئين في دراسة القانون امثاله خاصة وانه لم يكن قد تعلم شيئا من القانون الهندي، وكان في ذات الوقت، خالي الذهن من الشريعة الهندوسية والشريعة الاسلاميه السائدة في المجتمع الهندي، فتحول الى مهنه التدريس لنصف الوقت في مدرسة مئومباي العليا، ومع ذلك لم يوفق بسبب حيائه وتكوينه الاسري ونزاهته[٢] فعاد الى الضابط البريطاني (راجكوت) وسمح له بفتح مكتب لتحرير العرائض والاستدعاءات وشكاوى المواطنين وكان يربح منه ما يكفى لسد نفقات اسرته، وحتى ذلك العمل المتواضع لم يهنأ به، فقد حدث ان تعرض اخوه الاكبر لمضايقات من جانب (راجكوت) وكان غاندي قد سبق وتعرف على هذا الضابط في انكلترا، فذهب اليه تحت ضغط اخيه ليعفو عنه، وسرعان ما فوجئ غاندي بمعاملة غير لائقة من قبل ذلك الضابط الذي امر المرافق العسكري بطرده من المكتب، فشكلت هذه الواقعة(صدمة) كبيرة في ذات شخصية غاندي لم يتوقعها، ولذا اراد ان يرفع دعوى ضده ولكن احد المحامين الكبار، ويدعى(فيرزور شاه) نصحه بعدم اتخاذ اي اجراء والتغاضى عن الاهانة خشية ان يحدث ما لا تحمد عقباه بالنسبة له لكونه محاميا شابا، وقد تحمل غاندي هذا الموقف على مضض، رغم مرارتها وان كانت قد افادته حيث قال لنفسه انه لن يضع نفسه بعد اليوم في موقف مغلوط ولن يحاول بعد اليوم استغلال الصداقة على هذا النحو، ومنذ ذلك الحين تعد لنفسه بانه لم ينتهك حرمة هذا القرار، فقد غيرت هذه الصدمة على حد تعبيره مجرى حياته[٣]. بينما

(1) The new Encyc lopaedia Britannica FiFteenth Edition , vol .7 , p. 875

(٢) موسوعة السياسة، ج٤، ط٢، بيروت، ١٩٩٠، ص٣١٥. .

(٣) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١.

كان غاندي يعيش ظروفا غير طيبة في بلاده كتبت لاخيه احدى المؤسسات التجارية الضخمة التي يمتلكها احد الهنود المسلمين ويدعى " دادا عبدالله " في جنوب افريقيا ،تشير الى ان لها قضية كبيرة في المحاكم هناك اذ تطالب باربعين الف جنيه استرليني من احدى الشركات التجارية المنافسة وان القضاء ما يزال ينظر في الدعوى منذ مدة طويلة وقد وكلت المؤسسة عنها خيرة المحامين وتطلب المؤسسة ان يعمل غاندي فيها لمدة عام وبراتب قدره مائه وخمسه جنيهات بالاضافة الى الطعام والمسكن، وتشير الرسالة الى انه في ميسور غاندي ان يوجه"..محامينا احسن مما نوجهه نحن ولسوف ينعم برؤية جزء جديد من العالم وبانشاء صداقات جديدة.." ودرس غاندي هذا العرض مع اخيه ورغم انه لم يستطيع ان يستنتج ما اذا كان هو الذي سوف يوجه محامي المؤسسة او يمثل هو امام المحكمة ،ورغم ان الراتب اشبه باجور الخدم، فانه كان بحاجة الى مغادرة الهند باية طريقة فوافق بعد ان تقابل مع الشيت عبدالله الكريم جافرى احد اصحاب المؤسسة على العرض دون مساومه[١] من جهة اخرى، كانت(لامو)اول ميناء رست به الباخرة التي أستقلها غاندي لبضع ساعات، فانتهز غاندي الفرصة ونزل الى مكتب البريد بالمدينة، وكان في غاية السعادة حين راى الموظفين الهنود هناك وتجاذب معهم اطراف الحديث حول ظروفهم واحوالهم الخاصة والعامة في تلك البلاد، ثم غادرت الباخرة الى(مومباسا) ومنها الى(زنجبار) واخيرا وصلت الى ميناء(دربان) ومن ثم الى ناتال اواخر شهر ايار من عام ١٨٩٣ .وهناك كان بانتظاره الشيت عبدالله. وعند نزل غاندي من الباخرة جرى انتباه بسرعة ان الهنود في هذه البلاد يبدوا انهم لا يتمتعون بكثير من الاحترام، وقد تفاجيء منذ اللحظة الاولى لوصوله بواقع التفاوت الاجتماعي الذي تعيشه تلك البلاد[٢]، من هنا بدأ يكون انطباعاته عن مجتمعات جنوب افريقيا منذ تلك اللحظة. على ايه حال اصطحب الشيت عبدالله عبدالله غاندي الى مساكن المؤسسة، ثم اصحبه في اليوم التالي الى محكمة(دربان)وهناك عرفه على الكثيرون واجلسه الى جانب

(١) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦.

(٢) موسوعة السياسة، مصدر سبق ذكره، ص٣١٥.

محاميه .. ولكن القاضي حدق فيه كثيرا، واخيرا طلب منه ان يخلع (عمامته)الهنديه، الا ان غاندي رفض ذلك وغادر قاعة المحكمة من منطلق انه رجل درس القانون مثل ذلك القاضي[١].

كانت المؤسسة قد تلقت رسالة من محاميها تتضمن ضرورة الاستعداد للدعوى القضائية في محكمة بريتوريا،وقد اشترى غاندي تذكرة سفر بالدرجة الاولى وحين وصل القطار الى (مارتيزبورج)حدق احد المسافرين البيض فيه لكونه "ملونا"وسرعان ما حضر بعض موظفي السكة الحديد وطلبوا منه الانتقال الى عربة البضائع، وحين رفض ذلك جاء شرطي وامسك به ودفعه الى الخارج وانطلق القطار دونه، ومكث غاندي في غرفة الانتظار المظلمة وهو يعاني من برد شديد، وهنا ادرك بنفسه الظلم الناتج من تطبيق سياسة التميز العنصري التي يمارسها البيض ضد السود والملونين في جنوب افريقيا [٢]. وسرعان ما تامل في ذهنه بعض الافكار، هل يتعين عليه ان يناضل من اجل حقوقه او يعود الى الهند، ام يمضى الى بريتوريا متقاضيا عن الاهانات ويعود بعد الفصل في الدعوى الى الهند، وانتهى بتفكيره الى انه من الجبن ان يعود الى الهند من غير ان يفي بتعهده، وفي ذات الوقت راى ان من واجبه ان يبذل كل طاقته ليستأصل هذا الداء المعروف بالتعصب العرقي والوني، والتحق باول قطار الى بريتوريا، ومن ثم كانت تلك الرحلة اكثر تجاربه الخلاقة لانها كانت تجربة مريرة واخذ نشاطه يتجه منذ تلك اللحظة لمعارضة الظلم كجزء طبيعي اوحتى غير طبيعي من نظام جنوب افريقيا،وان يدافع عن كرامته وكرامة الهنود في تلك البلاد[٣]. وكان الشيت عبدالله قد ابرق الى التجار الهنود في

(١) اوضح الشيت " الشيخ " عبدالله لغاندي ان الهنود الذين يريدون الزي الاسلامي في ميسورهم ان يبقوا عمائمهم على رؤسهم، ولكن سائر الهنود الاخرين يخلعون عمائمهم حين يدخلون المحكمة، وقد فكر غاندي في لبس القبعة الانكليزية حتى يتجنب الاهانة ويضمن السلامة ولكن الشيت عبدالله نصحه بعدم ارتدائها حتى لا يبدو كاحد الخدم في الفنادق بجانب ان تمسكه بلبس العمامة يعبر عن وطنيته الهندية. المصدر

(٢) موسوعة السياسة، مصدر سبق ذكره، ص٣١٦

(٣) .The new Encyc lopaedia op. cit. , p .876:.

ماريتزبورج وبعض الاصدقاء في اماكن اخرى مجاورة للاحتفاء بغاندي، وحين تقابلوا معه في المحطة اوضحوا ان ما حدث له شيء مألوف وان على النهود المسافرين بالدرجة الاولى او الثانية ان يتوقعوا كل انواع المضايقات من الركاب البيض ومن موظفي السكة الحديد، بل وعدم السماح للهنود بالنزول في الفنادق الخاصة بالاوروبيين بحجة ان الهنود لا يرتدون ملابس لائقة. ولذا حين نزل غاندي في محطة بريتوريا ولم يجد احد ياواه فاشتد به الخوف لانه لا يستطيع التصرف في تدبير مبيته تلك الليلة فانقذه احد الزنوج الامريكان الذي قاده الى فندق احد اصدقائه يدعى(جونسون)وقد وافق الاخير على مبيته شريطة ان يقدم اليه طعام العشاء سراً في غرفته خوفا من زبائنه البيض، ورغم ان ذلك كان صدمة اخرى له،الا انه قدم شكره لصاحب الفندق، وفي الصباح ذهب لزيارة محامي المؤسسة مستر(أ.و.بايكر) الذي رحب به وعهد اليه بأن يكون حلقة الوصل بينه وبين موكله الشيت عبدالله، وانزله في منزل امراة فقيرة اعتنت به ودبرت له طعاما نباتيا. واخذ غاندي يدرس الدعوى بامعان شديد ورأى من الممكن ان تعالج القضية خارج ساحة المحكمة، خاصة وان المشكلة بين مؤسسة دادا عبدالله وبين نسيب له يدعى الشيت طيب، فاقترح وجود"حكم" تتوافر فيه الثقة من كلا الطرفين،ونوقشت القضيه امامه فكسبها دادا عبدالله الذي وافق على تقسيط المبلغ(اربعون الف جنيه استرليني) على دفعات،وقد ارتضى كل منهما على ذلك الحل ومن ثم حظيا بتقدير الجالية الهندية، اما بالنسبه لغاندي فيقول"كان ابتهاجي غامرا لاحد له، فقد تعلمت ممارسة القانون الحقه وتعلمت اكتشاف الجانب الافضل من الطبيعة البشرية.. المحامى الحقيقية هو ان يجمع مابين الفريقين المتناحرين ويحاول التوفيق بينهما "[١].

طلب غاندي الى الشيت طيب حاجي خان محمد الذي كان يتمتع في بريتوريا بمثل ذلك المركز المرموق الذي يتمتع به دادا عبدالله في ناتال، ان يجتمع بكل الهنود في بريتوريا لدراسة احوالهم، الا انه يرى منذ وصوله الى جنوب افريقيا، ان تلك البلاد تمثل له " تحديات " وكان من الصعب عليه ان يستوعبها ببساطة، فقد وجد نفسه وجها لوجه امام

(١) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص١٦٢ .

ابشع صور العلاقات الانسانية وبئس ما يتقاضاه الهنود من اجور ضئيلة مقابل عملهم في استخراج الذهب من المناجم وصهره في الافران في الترانسفال وحرمانهم حتى من ابسط الحقوق اللازمة للحياة[١] رحب الشيت طيب بذلك وتمت دعوة كل الهنود الى الاجتماع في بيت الشيت حاجي محمد حاجي جوساب[٢].وبعد ان قدم غاندي للحضور صورة عن حالة الهنود في ناتال،ضغط في كلمته على ضرورة عدم التفرقة بين الهنود ونبذ التميز بين الهندي المسلم والهندوسي والمسيحي والكوجراتي والمدراسي والبنجابي والسندي والكاشي والسوراتي، واوضح لهم ان كل الهنود ينتمون الى وطن واحد،ثم فتح باب المناقشة لمعرفة احوالهم في الترانسفال،وبعد ان الم بمتاعبهم اقترح تكوين جمعيه تقدم للسلطات احتجاجا على المعاملة السيئة التي تلقاها الجالية الهندية،وابدى استعداده ليخصص كل ما يستطيع من وقته لخدمه الجمعيه،بل واستعداده ايضا لتدريس اللغة الانجليزية لمن يريد من الهنود وابنائهم،وقد رحب الحضور بالاقتراح وتم الاتفاق على ان تعقد الجمعية شهريا لتبادل الاراء واتخاذ بعض الاجراءات الازمة والمناسبة للهنود واخذ الاعضاء يزودون غاندي بالوقائع المريرة التي تحدث للهنود من جانب البيض[٣].

وبعد دراسة احوال الهنود في عهد دولتي أورنج والترانستال عرف غاندي الكثير عن متاعب الهنود في بريتوريا عن طريق اعضاء الجمعية،تعرف الى المستر(جاكوبوسي دو ويت)المندوب البريطاني هناك الذي كان رغم نفوذه الضئيل يتعاطف مع الهنود ووافق على مساعدته قدر الامكان، وقد له ذلك المندوب بعض الاوراق المتصلة بالمسائل الهندية وموقف السلطات من الهنود، وكان الشيت طيب قد سلم غاندي اوراق مماثلة، وبعد ان انكب غاندي على دراسة احوال الهنود في دولتي أورنج والترانستال من خلال ما قدمه من وثائق حول معاناتهم، كما علم كيف وبأي وحشية طرد الهنود من دولة اورنج الحرة، فقد وضح له انهم محرمون من جميع حقوقهم بقانون ١٨٨٨،الذي ينص

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(٢) كان الهندوس في بريتوريا قلة قليلة ولذا حضر الاجتماع عدد كبير جدا من التجار المسلمين .

(٣) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥.

على انه اذا اختار الهنود البقاء هناك فانهم لا يحصلون على هذا الحق الا اذا عملوا خدما في الفنادق والمنازل او مارسوا مهنا صغيرة مماثلة،وكيف طردت السلطات هناك العديد من التجار الهنود ولم تستجب لاحتجاجاتهم او تستمع لشكاواهم واكتفت بان دفعت لهم تعويضات رمزية. اما في الترانسفال فكان وضع الهنود اكثر تعاسة وبئسا، حيث ان القانون الذي صدر في عام١٨٨٥ والذي عدل تعديلا طفيفا عام١٨٨٦ ينص على ان كل هندي يجب ان يدفع ضريبة الراس وقدرها ثلاثة جنيهات كرسم دخول الى الترانسفال، كما نص ذلك القانون المعدل على انه لا يحق للهنود ان يمتلكوا اراضي الا في مناطق مخصصة لهم، وظل هذا النص نظريا لانه من الناحية العملية كان هؤلاء الهنود محرمين من حق التملك، بجانب انه طبق عليهم القانون الخاص بالاسيويين الذي يحرمهم من كل حقوقهم السياسية وتعرضهم لسياسة التفرقة العنصرية بحيث لا يحق للهنود ان يسيروا على ممرات الشارع العامة للبيض او يخرجوا من مساكنهم بعد الساعة التاسعة مساء بدون تصريح[1] درس غاندي كل تلك الوقائع وعايش الهنود في الترانسفال وتعايش مع قضاياهم،ولذا كان وجوده في بريتوريا(تجربة)من انفس تجارب غاندي الحياتية، فدفع به هذا التاثير بشان الوضع المهين الذي كان عليه الهنود الى دراسة الحالة بشكل اعمق واشمل لاحوالهم الخاصة والعامة في الترانسفال، فقد راى ان جنوب افريقيا ليست بلدا يستطيع الهندي الذي يحترم نفسه وان يعيش فيه باحترام ابسط حقوقه الانسانية، لذا شغل تفكيره اكثر فاكثر للعمل بكل السبيل المؤدية الى تحسين هذا الوضع كما يجب ان يكون علية البلاد .

(١) كان تجار الهنود الذين يسمون انفسهم (عربا) يستثنون من ذلك، وكان هذا الاستثناء رهنا بادارة الشرطة. للمزيد ينظر عباس غلام حسين ،جمهوريتا الترانسفال والاورنج الحرة والموقف البريطاني منهُما ١٨٥٢-١٩٠٢، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية / ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠١٢، ص ١٤١.

المحور الثالث: قانون الحقوق السياسية وتاسيس المؤتمر الهندي في جنوب افريقيا

عاد غاندي من بريتوريا الى دربان استعدادا للرجوع نهائيا الى الهند حسب التعاقد مع مؤسسة دادا عبدالله،وفي الحفلة التي اقامها الشيت عبدالله على شرفه في(ساید نهام) قرأ غاندي في احد الصحف خبرا بعنوان(حق الهنود في الانتخابات) وكان هذا الخبر يتصل بمشروع القانون المعروض وقتذاك على المجلس التشريعي في ناتال والذي يهدف الى حرمان الهنود من حق انتخاب اعضاء مجلس ناتال التشريعي،وقد استوضح غاندي من الشيت عبدالله ان الهنود ليس في استطاعتهم ان يفعلوا شيئا فقد قضى الاوروبيون على كل تجارتهم في اورنج الحرة وذهبت كل احتياجاتهم ادراج الرياح ولا يعرفون عن ذلك التشريع الجديد شيئا الا عن طريق محاميهم من الاوروبيين في جنوب افريقيا،ولكن غاندي راى ان المشروع اذا اصبح قانونا يجعل وضع الهنود حرجا الى ابعد الحدود،وقال للحضور"انه اول مسمار في نعشنا"و"طعنه في صميم احترامنا لذاتنا"[١] وبعد نقاش حول هذا الموضوع طلب منه الحضور،البقاء في ناتال ووعده بانهم سيناضلون وفقا لتوجيهاته وتعهدوا بجمع الاموال الازمة لتغطية كل التكاليف،وارسلت الدعوة الى افراد الجالية الهندية وخاصة الشباب ممن ولدوا في ناتال ولا سيما ان معظمهم يجيدون اللغة الانجليزية، للاجتماع في منزل الشيت عبدالله،وعلى الفور قرر المجتمعون معارضة مشروع القانون وابرقوا الى رئيس الجمعية التشريعية والى رئيس الوزراء السير(جون روبنسون)لوقف مناقشة المشروع،كما ارسلوا صورة ثالثة الى المحامي"ايسكومب"بوصفه صديق دادا عبدالله، وكانت اجابة رئيس الجمعية التشريعية بوقف مناقشة المشروع لمدة يومين، ليكون فرصة وحافز، يشجع المتطوعين ليجمعوا المئات من تواقيع الهنود على صورة الرسالة التي ارسلت الى رئيس الجمعية، وعلى الفور ايضا ارسلت صور منها الى دور الصحافة في ناتال والهند والتي علقت عليها لصالح الهنود، ورغم تمرير المشروع في الجمعية التشريعية، فان هذه الحركة في حد ذاتها قد بعثت

---

(١) Britannica op. cit. , p .877.؛ عباس غلام حسين، جمهوريتا الترانسفال والاورنج، مصدر سبق ذكره .

حياة جديدة في شان الجالية الهندية، ورأت ان الواجب يتطلب منها النضال من اجل حقوقها السياسية والاجتماعية والتجارية. ومن جانب اخر، عكف غاندي على دراسة كل المراجع القانونية المتداولة في جنوب افريقيا ،وتوصل الى ان الهنود لهم الحق في الانتخابات في ناتال،وتمكن المتطوعين من الجالية من جمع عشرة الاف توقيع في خلال اسبوعين،وطبع من تلك العريضة الف نسخة،ارسلت احدها الى اللورد(ريبون)وزير المستعمرات وقتذاك،وارسلت بعض النسخ لدور النشر والصحافة، فساهمت هذه الدعوات والمقالات في ترسيخ المطالب الهندية تاييدا واسعا ،كما ارسلت نسخ اخرى الى الصافة الانكليزية الممثلة لمختلف الاحزاب والممثلين لمختلف المذاهب الفكرية، وقد ايدت التايمز اللندنية المطالب الهندية وتعاطفت مع هنود جنوب افريقيا ككل فكان كل ذلك عاملا محفزا على ان تواصل الجالية لنضالها من اجل حقوقها السياسية[١]. مما ترتب عليه ممارسة الهنود الضغط على غاندي للبقاء في وربان والعمل بمهنة المحاماة والعمل على تنظيم شؤون الجالية الهندية [٢] وقد تمكن غاندي من تاسيس المؤتمر الهندي في ناتال عام ١٨٩٤ بعد جهود مضنية وان يسجل اسمه في الجمعية القانونية في ناتال ليزاول مهنة المحاماة في المحكمة العليا، ولكن ظلت المهنة عملا ثانويا بالنسبة له، فقد ركز كل نشاطه على العمل في ميدان الخدمة العامة ليبرر بقاءه في ناتال، ولذا راى أن ارسال الطلب ضد مشروع القانون القاضي بحرمان الهنود من حق الانتخاب لم يكن كافيا في حد ذاته، فقد كانت استمرارية الاشارة، جوهرية جدا للتاثير في نفس وزير المستعمرات، ومن ثم راى غاندي ان تشكيل المؤتمر (منظمة دائمة)، وبعد استشارة الشيت عبدالله وآخرين أطلقواعليها اسم (المؤتمر الهندي الناتالي) الذي ابصر النور في ٢٢ايار ١٨٩٤ واصبح غاندي أمينه العام .

وكان لذلك المؤتمر لائحة في غاية البساطة والمرونة ،فقد تضمنت ان يدفع العضو المشترك خمسة شلنات شهريا، وكان قد تم اقناع الطبقات الغنية بالاكتتاب الى اقصى حد

---

(١) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.

(2) op. cit. , p .875 Britannica

تستطيعه، وفعلا افتتح الشيت عبدالله الاكتتاب بان أعلن استعداده لدفع جنيهين شهريا وقد حذا حذوه آخرون، واتضح بعد فترة انه من الافضل ان تدفع الاشتراكات سنويا ومقدما ويجد ادنى ثلاثة جنيهات للعضو .

وكانت الاجتماعات تعقد مرة كل شهر، ومرة كل اسبوع اذا تطلب الضرورة وتناقش في الاجتماع مختلف القضايا السياسية والتجارية والاجتماعية الخاصة بالهنود.

وان من ابرز نشاطات المؤتمر ما يلي:

١. انشاء الجمعية الثقافية والتي زودت بمكتبة صغيرة لرعاية الشباب خاصة الذين ولدوا في المستعمرات، فصارعت تلك الجمعية منتدى لهم ومن ثم اتاحت لهم المجال في الخدمة العامة .

٢. ركز المؤتمر على الدعاية بهدف تعريف البريطانيين في جنوب افريقيا وبريطانيا وكذلك تعريف الناس في الهند نفسها بحقيقة الاوضاع في ناتال .. ولذا وضع غاندي كتيبين لهذا الهدف وهما :

أ. " نداء الى كل بريطاني في جنوب افريقيا " وكان يحتوي على وصف مؤيد بالادلة للاحوال العامة التي يعيش في ظلها الهنود الناتاليون .

ب. " لحقوق السياسة الهندية – نداء " ويحتوي على موجز لحقوق الهنود السياسية في ناتال مدعم بالوقائع والارقام.

هذا وكان من نتائج نشاط المؤتمر أن اكتسب الهنود اصدقاء كثيرين في جنوب افريقيا وفازوا بالعطف الفعال من جميع الاحزاب في الهند، لذا فقد رسم هنود جنوب افريقيا خطا محددا للعمل ارتكز على الاسس العقائدية والفكرية لنضال غاندي وهي الاسس التي تستند على خلفيات دينية واقتصادية وسياسية في آن واحد [١].

(١) تاثر غاندي بعدد من المؤلفات مثل" نشيد الطوباري " – بغافاد، وهي ملحمة شعرية هندوسية كتبت في القرن الثالث ق .م، واعتبرها غاندي بمثابة قاموسه الروحي ومرجعا اساسيا يستلهم منه افكاره وخطواته وكذلك " موعظة الجبل في النجيل " وكتاب " العصيان المدني " للشاعر الامريكي

لذا نستطيع القول انه من خلال هذا التنظيم استطاع غاندي، ان يغرس روح الصلابة في الجالية الهندية بعناصرها المختلفة والمتغايرة، فبجانب انه كان يرسل للحكومة وللمجلس التشريعي وللصحافة نوعا من تحليلات واسباب الحالة المحزنة التي اصبح عليها الهنود، فانه ايضا وجه نظره للعالم الخارجي فيما يختص بجوهرة خزانة االادراة البريطانية "للهند " وكذلك التفرقة الواضحة بين رعايا الملكة فيكتوريا من الهنود في واحدة من مستعمرتها في افريقيا، وقد كان مقياسا لنجاحه كداعية لهذه القضايا، ان العديد من الصحف خاصة " التايمز اللندنية " قد علقت في مقالاتها في اكثر من مناسبة على متاعب هنود ناتال [١]

٣. النضال لالغاء ضريبة الجنيهات الثلاثة، فقد ذكرنا ان حكومة ناتال ابرمت في عام ١٨٦٠ م تعاقدا مع حكومة الهند تصدير الايدي العاملة من ذوي الاجور الرخيصة للعمل في مزارع القطن وصناعة السكر، وكانت الهند في تلك الفترة تمثل القاعدة السياسية للامبراطورية البريطانية في الشرق، مما ترتب عليه هجرة واسعة النطاق للهنود حاملين معهم مهاراتهم وخبراتهم المتنوعة، وبهذا انفتح آفاق جديدة امامهم لخوض تجربة جديدة خارج بلادهم سواء في جنوب افريقيا او غيرها من المناطق. وقد اعطى الهنود في جنوب افريقيا اكثر مما كان متوقعا منهم فقد زرعوا مساحات شاسعة من انواع المحاصيل في ناتال، وبتقادم الزمن تحسن وضع العمال فاصبحوا اصحاب املاك والعمل في التجارة في ناتال، ابرزهم الشيت "ابو بكر آمود " الذي اسس شركة تجارية فيها، ولكن سرعان ما ترتب على مساهمة الهنود بالتجارة قلق التجار البيض من الاوروبيين الذين كانو يحتكرون التجارة من غير مشاركة الافارقة السود او غيرهم، من هنا تولدت لدى البيض الحقد عليهم بحيث اخذوا يعاملون الهنود بشكل قاسي يتنافى مع ابسط قواعد ومعايير القيم الاخلاقية والانسانية، من هذا المنطلق لجئوا الى تشريع قانون خاص يقضي بحرمان الهنود من حق الانتخابات – انفة الذكر– في الوقت

هنري ديفيد تورو ١٨١٧–١٨٦٢".

(1) op. cit. , p .875 The new Encyclopedia ....

الذي كان هناك مقترح آخر الى جانب ذلك، يقضي باعادة الهنود الى الهند بالاكراه قبل ان تنتهي مدة العقد البالغ (خمسة سنوات) الا انهم تراجعوا عنها بعد توضح لهم ان الحكومة الهندية سترفض هكذا مقترح، وعليه قدموا بديل آخر جاء فيه:

* على العامل المتعاقد ان يعود الى الهند عند نهاية العقد.

* يتعين عليه ان يوقع عقدا جديدا كل سنتين شرط ان يعطي علاوة عند تجديد .

* في حالة رفضه العودة الى الهند او تجديد العقد يتعين عليه ان يدفع ضريبة سنوية مقدارها خمسة وعشرون جنيها .

وحين علم غاندي بذلك الاقتراح الذي يتعارض تماما مع مع ما اتفق عليه في عام ١٨٦٠، طرح المشكلة على المؤتمر الهند الناتالي للمناقشة، وقرر المؤتمر في الحال تنظيم المعارضة بشكل قوي وفعال، ومن ثم وصل هذا الامر الى مسامع حكومة الهند. في حين سافر الوفد المكون من السير (هنري بنز) ومستر (مايسون) للحصول على موافقة الحكومة الهندية على ذلك الاقتراح لم يوافق اللورد (ايلجين) نائب الملك في الهند على الضريبة الخمسة والعشرين جنيها، ولكنه أقر ضريبة على عدد الاشخاص ثلاثة جنيهات[١] .

والحقيقة انه سواء كان التخفيض ناتجا عن قناعة من حكومة الهند او بسبب الحملة الضاربة التي قادها المؤتمر ضد حكومة ناتال، فان مقدار الضريبة – ثلاثة جنيهات – في حد ذاتها كانت لا تتناسب على الاطلاق مع دخل العامل الذي لا يزيد عن ١٤ شلنا في الشهر. ولذا شعر المؤتمر بعجزه امام قوة حكومة ناتال البيضاء، ولكن غاندي لم يستسلم لتلك الحكومة واستمر يثير هذه المسالة ويطالب بالغائها وقد تحقق ذلك ضمن تسوية "سمطس – غاندي ١٩١٤ "[٢] .

---

(١) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٨ .

(٢) لم يتمكن غاندي ان يتوقف مسالة الهجرة الهندية في عام ١٩١٤ ولكنه لم يهدأ في المطالبة بالغائها حتى تم ذلك في ٣١ تموز ١٩١٧؛ غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦ .

المحور الرابع: زيارة غاندي التفقدية للهند:

شعر غاندي بعد ثلاث سنوات من الجهد المتواصل في جنوب افريقيا بالحنين الى اسرته ووطنه،ومن ثم اقنع المؤتمر بان يقدم"آدمجي ميياخان" باعمال السكرتارية،وابحر هو في منتصف عام ١٨٩٦الى الهند لاحضار زوجته واولاده، ومحاولة تجميع الدعم للهنود ما وراء البحار، وانتهز فرصة تخلفه عن القطار في مدينة"الله اباد"وتقابل مع رئيس صحيفة"الرائد"التي كانت تصدر هناك،وتعارض اماني الهنود في جنوب افريقيا، فاوضح غاندي له المأساة التي يعيشها الهنود هناك،فوعده بأن ينشر ذلك ولكنه لا يستطيع ان يعيده بتأييد جميع المطالب الهندية باعتبار انه مضطر الى ان يفهم وجهة نظر سكان المستعمرات ايضا ويعطيها حقها من التقدير..وسافر غاندي الى راجكوت واخذ يستعد لتأليف كتاب حول الوضع في جنوب افريقيا[١] يتضمن صورة ملطفة عمدا لاحوال الهنود في تلك البلاد،وطبع من هذا الكتاب عشرة الاف نسخة وارسل عددا منها الى الصحف وزعماء مختلف الاحزاب، وكانت"الرائد"اول صحيفة علقت على ذلك الكتاب في مقال افتتاحي، وابرقت وكالة"رويتر"بخلاصة المقال الى مكتب لندن،والذي ابرق بدوره بخلاصة المقال محرفا الى ناتال، ونسبت الى غاندي عبارات مدسوسة،ولم تكن مطلقا من عنده[٢]. وبينما كان غاندي يقوم بجولة في بعض المدن الرئيسية ويتقابل مع قادة من المتاجر ويحثهم على اقامة مؤتمرات عامة لمساندة هنود جنوب افريقيا وصلته برقية من"دربان" تفيده ان البرلمان في ناتال سينعقد في يناير(١٨٩٧)وتطلب اليه العودة في الحال،فأبحر الى ناتال بصحبة زوجته وولديه وابن اخته على احدى البواخر "كورلاند"التابعة لشركة دادا عبدالله ووصلت تلك البواخر الى ميناء دربان في١٨ ديسمبر١٨٩٦وعليها مئات من الهنود،وهناك في الميناء امر مفتش الحجر الصحي ببقاء البواخر لمدة خمسة ايام حتى يضمن خلو الركاب من مرض الطاعون الذي كان متفشيا

(١) كان غلاف الكتاب اخضر اللون ولذا كان يعرف بالكتاب الاخضر. غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦.

(٢) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠ .

في بومباي آن ذاك ولكن يبدو انه كان وراء ذلك اسباب اخرى منها:[١].

١- كان سكان دربان البيض يحتجون بشدة على وصول الهنود الى ناتال لدرجة انهم صاروا يهددون شركة دادا عبدالله تارة ويعرضون عليها اغراءات عظيمة اذا اعادت الهنود الى بلادهم تارة اخرى.

٢- اخذ البيض يرهبون الهنود بالقول"اذا لم ترجعوا فسنلقى بكم في البحر،واذا وافقتم على العودة تستردون اثمان تذاكر السفر"

٣- عودة غاندي بصفة خاصة فقد كانت هناك تهمتان موجهتان اليه هما :

أ- انه حين كان في الهند هاجم في خطبه ابناء ناتال البيض هجوما قاسيا وسبهم على الملأ.

ب- تعنى عودته بصحبه مئات من الهنود انه يرغب في اغراق ناتال بهم.

ولكن رغم كل ذلك فانه نظرا لخلو الركاب من مرض الطاعون وضغط شركة دادا عبدالله صاحبه البواخر،ورفض الهنود العودة الى بلادهم تمت الموافقة يوم٢٣ك١ على نزولهم الى اليابسة.وحين وصل غاندي الى البر كانت هناك مفاجأة لم يتوقعها على الاطلاق،فقد تعرض له حشد من عصابات البيض يرجمونه بالحجارة والطوب والبيض، والقوا بعمامته الهندية الى الارض في حين اخذ اخرون يوسعونه ضربا مبرحا، فأغمى عليه وكاد يلفظ انفاسه الاخيرة،لولا ان اسرع شاب هندي الى مركز الشرطة وابلغ عن الحادث،وتمكنت الشرطة رغم خطورة الموقف وتعصب هؤلاء البيض المتعصبين وتعطشهم للفتك به من ان تنفذه منهم وتحمله الى المركز،وهناك ارتدى بزة رجل بوليس هندي واعتمر بوشاح مدراسي ورافقه بعض الرجال الشرطة السرية وهربوا به من المركز الى منزله، واثناء ذلك كانت صحيات البيض لا تفتأ تطالب باغتياله لاتهامه بأنه هاجم في خطبه التي القاها في الهند ابناء ناتال البيض .وحين ابرقت وكالات الانباء خبر الحادث الى لندن، وجه مستر تشيمبرلين وزير المستعمرات الى حكومة ناتال يطلب

(١) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٩.

اليها ان تقدم هؤلاء المعتدين الى القضاء،ولكن غاندي تنازل كتابة عن اتخاذ اي اجراء ضدهم[١]. ويبدوا ان غاندي كان يريد ان يتخذ من هذا الموقف مايفيد قضية الهنود، الى جانب تسامحه عما لحق به من اهانه وآذى فانه نفي في حديثه الى مندوب صحيفة"ناتال ادفرتايزز"كل ما نسب اليه مثل تطاوله وسبه للبيض في ناتال،وابرز له صورا من كل خطبة في الهند،واوضح له ان معظم الركاب الهنود الذين كانوا معه لايعرفهم وانهم في طريقهم الى الترانسفال،مما ترتب على كل ذلك ردود فعل طيبة من جانب البيض والصحافة في ناتال عززت من مكانه الجاليه الهندية وجعل مهمته لخدمه ابناء وطنه اكثر يسرا.ولكن يبدوا ان البيض سرعان ما اعادوا حساباتهم ورأوا في تدفق الهنود على ناتال ومنافستهم لهم في اعمال التجارة وتحول الكثيرين منهم من تجارة المفرد الى تجارة الجملة مما يشكل خطورة عليهم،ولذا قدموا مشروعي قانونين الى مجلس ناتال التشريعي.

الاول: يهدف الى وضع عراقيل في وجه التاجر الهندي للحد من تنامي تجارته.

الثاني: يهدف الى فرض قيود صارمة على الهجرة الهندية.

فاسرع مؤتمر الهند الناتالي وترجم المشروعين الى اللغات الهندية وشرح ابعادهما والمغزى من وراء اقرارهما،لتكون الجالية على علم بما يدور في ناتال ضدها ولتقوم بكل واجباتهم المطلوبة للمعارضة ووقف المشروعين،ولكن رغم صيحات المؤتمر واحتجاجاته لوزير المستعمرات البريطاني، فأن المشروعين اصبحا قانونا يعمل به في ناتال[٢]ولذا قام غاندي بتوجيه نداء الى الهنود لينضموا الى المؤتمر وتأييده بالموارد المالية وقد شكلت هذه الاحداث عاملا هاما في صياغة ما يعرف بسياسة اللاعنف[٣] .

---

(١) غاندي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٣) نقلا عن محمد عبد الحليم محمد، رسالة الماجستير، اتحاد جنوب افريقيا، جامعة القاهرة، ١٩٩٢، ص٢٨ .c.o.551/ 1: The star, General Botha speech , 3rd june 1910

الخاتمة:

تعتبر تجربة غاندي نموذجا مهما في الاستقلال والتحرر في العمل السياسي السلمي، بالرغم من انها ليست الاوليفي الصراع والنضال لاجل الوصول الى الاهداف اي الاستقلال ونيل الحريات والعدالة في المجتمعات في كيفية استخدام لمفهوم حرب الاعنف الذي هو شن الصراع على القوى المعادية لكي تحطم ارادة العدو باستعمال اسلحة لا عنيفة ولها تاثيرات قوية .

لقد اتخذ غاندي في حياته بعد تخرجه من كلية الحقوق في انكلترا منعطفا خاصة فيها شيء من الغموض بعد ان فشل من ايجاد عمل له في الهند ،الا انه وعن طريق شقيقه وبالصدفة حصل على عقد سنوي من شركة محلية للعمل بعقد سنوي في جنوب افريقيا. وفي هذا الشان يقول غاندي عن تجربته في افريقيا " لقد تعلمت الممارسة الحقة للقانون .. وتفاقمت اكتشاف الجانب الافضل في الطبيعة البشرية والدخول الى قلوب الناس. أدركت أن وظيفة المحامي الحقيقية هي توحيد الاطراف المتنافرة " وقد كسب ثقة البيض والهنود في جنوب افريقيا على حد سواء، حتى اصبح غاندي نموذج وقدوة امام الاخرين، كانت الصراعات المحلية في جنوب افريقيا هي الارضية التجريبية التي تعلم فيها غاندي فن المطالبة بالعيش من اجل الاخرين بدلا من نفسه، وفي نهاية الامر اصبح العالم برمته عائلته .

ان تجربة غاندي في جنوب افريقيا قد اغنته بوسائل متعددة، فقد زودته بقوة كامنة تختلف عن الذين مارسوا السياسة في الهند،لان تنوع الهنود في جنوب افريقيا من تجار مسلمين الى الطبقة الدنيا من العمال المقهورين واختلاف مشاكلهم،جعله ان يكون على صلة قوية ومستمرة بطبقة عريضة من مواطنيه اكثر من زملائه المعاصرين له داخل الهند،فقد كان نضاله من اجل حقوقهم وضد التمييز العنصري،وضد قانون الهجرة وقانون الغاء عقود الزواج غير المسيحية وتعرضه للسجن في جنوب افريقيا محسوبا له،افاده كثيرا جدا في الهند،ولذا نرى انه ابتداء من ١٩٢٠ وحتى اغتياله في ٣٠يناير١٩٤٨ كانت كل الحياة السياسية الهندية تتمحور حول شخصيته، فقد ركز عمله العام حول

محورين اساسيين هما النضال ضد الظلم الاجتماعي والنضال ضد الاستعمار البريطاني، وقد تجلت مواهبه الخاصة حسب تعبير الجنرال سمطس، وشجاعته، في عدم الفصل بين هذين المحورين، لانه عرف كيف يخلق التكامل بينهما وكيف يربط بين الحرية الاجتماعية والحرية القومية. واذا كانت التجربة لم تعط الثمار المرجوة في جنوب افريقيا فانها اعطت ثمارا ناضجة في الهند ومن ثم اصبح غاندي يشكل لغز السلطات البريطانية في الهند والحكومة البريطانية في لندن،ولم تقتصر اثار تجربته ومفعول منهجه على جنوب افريقيا والهند،وانما تاثر بها كثيرون من زعامات سياسية واجتماعية ورجال دين في عالم القرن العشرين، ولكن من منظور تاريخي نقول ان منهج غاندي قد لا يصلح في كل مكان لاختلاف الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية. هكذا اصبح غاندي قائدا في مقاومة الاستبداد من خلال العصيان المدني الكلي الشامل للهند، والمعروف باسم مهاتما غاندي ومعناها الروح العظيمة، وقد اعتبر يوم ميلاده عطلة عالمية وطنية باسم اليوم الدولي للاعنف. نجح غاندي نجاحا باهرا في استقلال الهند عام ١٩٤٥، ولكن لم ينجح بعدم تقسيم الهند الى دولتين.

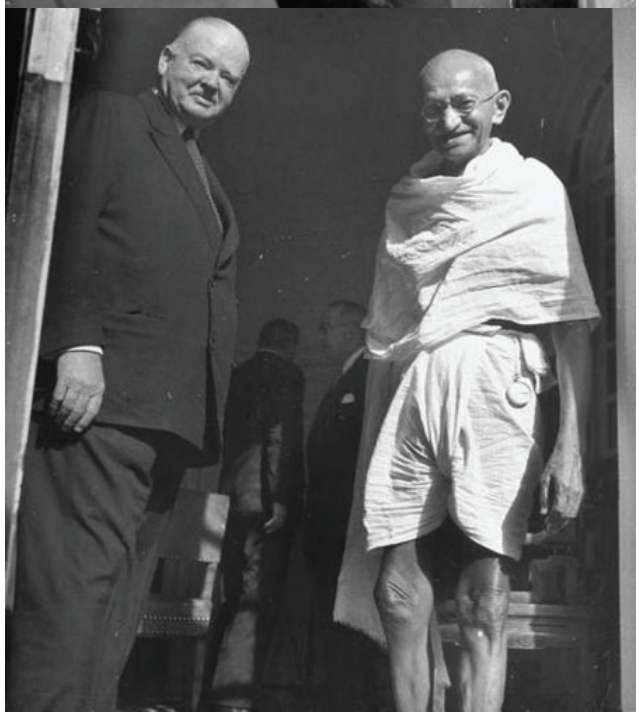

المصادر والمراجع:

١) شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، ادار النشر بلا، القاهرة، ١٩٧١، ص٢٥٥ .

٢) سيرة المهاتما غاندي بقلمه، نقلها الى العربية منير البعلبكي، بيروت، ١٩٨١، ص١٣٢ .

٣) عبدالملك عودة، قضايا الاقلية الاسلامية في جنوب افريقيا، مجلة الهداية، البحرين، العدد ١٤٣، ص٨.

٤) محمد حسين خان شفا، الزعيم غاندي والزعماء العرب، ثقافة الهند، المجلد ٤١، العدد ٢، نيودلهي ١٩٩٠، ص١٦٨ .

٥) عباس غلام حسين، جمهوريتا الترانسفال والاورنج الحرة والموقف البريطاني منهُما ١٨٥٢-١٩٠٢، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية / ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠١٢، ص ١٤١.

٦) محمد عبد الحليم محمد، رسالة الماجستير، اتحاد جنوب افريقيا، جامعة القاهرة، ١٩٩٢، ص٢٨ .

7) c.o.551/ 1 : The star, General Botha speech , 3rd june 1910.

8) Marais, J.S. : The fall of kruger s Republic , oxford ,1961.p.78.

9) freda, Troup: south Africa penaiun Books 1975 p . 154 .

10)The new Encyc lopaedia Britannica FiFteenth Edition , vol .7 , p. 875